المـــقدمـة

إليـكِ ....

يا من تمردتِ مرارًا وثورتِ حتى أنهكتكِ الثورات ...

يا من حلمتِ يومًا فعوقبتِ على التمني ...

إليـكِ ...

يا من أخفيتِ سنوات وسنوات والتزمتِ الصمت دهورًا...

يـا من تورعتِ خوفًا وليس إيمانًا...

إليـكِ:

يـا من قاومتِ حد الموت...

يـا من فارقتِ الحياة وأنتِ ما زلتِ هنا بينهم...

إليـكم:

يـا من تتشدقون بقضاياها وتنفثون عرضها في دخان سجائركم...

يـا من تتحدثون حتى ملّتِ الاستماع ...

اصمتوا قليلاً... ودعوها تتكلم.

إهداء

إلى زوجي أحمد

وابنتي ملك

وإلى أبي وأمي وإخوتي

وأخص بالإهداء

كل من قال لي يومًا: لا تكتبي فَكَتَبْت..

فقد قال لي ذلك ليس لسوء كتاباتي ولكن لعدم جدواها
فتجاهلت نصائحه الثمينة.

....وكَتَبْت....

(١)

تلك المرأة

وقَفَ أمام الباب يقلب في أوراقه ليُخرِج الورقة التي أعدها لهذه اللحظة، يتأكد من قلمه الحبر بأنه يكتب جيداً، يُتمِم على جهاز تسجيل خاص به ... يتلمس كاميرا لا يمتلكها حتى يتأكد من وجودها.... يعدل نضارته، ثم يطرق الباب ..

يجيبه صوت غَلب عليه الوهن:

تفضل ...

يفتح الباب ... يتجه للداخل، تؤسره موسيقى كلاسيكية ملائكية...

يقترب منها ..

أنا .... صحفي وطلبت من إدارة المستشفى التحدث إليكِ فهل لديك ما يمنع ذلك الحديث؟

رمقته السيدة التي تعدت الستين عاماً بضعفٍ شديد، وأومأت بعينيها بالإيجاب ... مَدّ يده يصافحها فأعاقها جسدها المكَبل بالأجهزة ويداها المثقوبتان بالأنابيب عن مصافحته ...

استأذنها بالجلوس فجلس على كرسي يبدو مريحاً بجانب سريرها ... وقبل أن ينطق بأول حرف هدّأت من صوت الموسيقى ...

قال لها بارتباك شديد:

تعلمين جيدًا بأنه قد نشر خبر منذ يومان في الجرائد عن سيدة توفي زوجها فجلست بجانبه ثلاثة أيام بلا طعام أو شراب حتى اضطر الجيران لإبلاغ الشرطة واقتحام الشقة قلقًا عليهم، وأن هذه السيدة في المستشفى ترفض تمامًا كل شيء يُبقيها على قيد الحياة وحالتها الصحية تسوء يوميًّا ...

وأعرف تمامًا أن كل من تداول الخبر تحدث عن أنها حادثة غريبة من نوعها ثم لا شيء ... لكني بحدسي الصحفي وربما العاطفي أيضًا ظننت أن هناك أشياء تستحق أن تبوحي بها ..

رَقْرقَت عيناها بالدموع وبدأت تستعد للحديث وكأنها كانت تحتاج لِلحظة كهذه بالفعل ...

لن أحدثك عن رجل ولا عن زوج سأحدثك عن وطن عشت بداخله، كبرت بين ضلوعه، سَرَت دمائي من شرايينه ... وطن محرم عليّ أن أهاجره فهو لا يتيح لي جوازًا للاغتراب، وطن رمى بكل حقائب الأسفار، وأتى لي بحقائب عمره، وضعها بين يدي أعيد ترتيبها كيفما أشاء..

كان طبيبًا مهندمًا يليق به الوقار، أحببته من النظرة الأولى كما يقولون أو ربما أحببته قبل أن أراه ...

فقد رأيته في خيالاتي وأحلامي، لكني وبكل ثقة أقول لك: إنه تفوق على خيالاتي الجامحة ... عندما توفي أبي صار هو الرجل الأوحد في حياتي بعدما كان في حياتي رجلان يتقاسمان قلبي، استحوذ هو على كامل قلبي، احتضنني حينها وهمس لي: لا تقلقي، ومن لحظتها لَم أخَفْ ولَم أقلق إلى الآن ....

باتت قضيته في الحياة حمايتي فَأتفَادى كل الطعنات ليستقبلها هو بدلاً مني ...

يا له من حب عاصف زلزل كياني، أوقد شموعي، حملني بين ذراعيه بعيدًا عن ضجيج السيارات، وتنازعات البشر، رحل بي عن دنيا الواقع لأقصد عالمه ...

يا له من رجل أفقدني ذاكرة الأحزان لتنفتح عيناي، ولأول مرة على تفاصيل وجهه ولمسات يديه ... تشبثت به كطفل رضيع لم يمكث في دنيانا إلا بضع أيام ...

أحبو إليه بلهفة جنونية وتصارعني الأمنيات بأن أسير بجانبه متشابكي الأيدي ...

نُصادق الطبيعة التي هي توأمه، رأيت فيها الكثير منه ورَوت لي القليل عنه ... أظنها تغار من حبيبي، فأنا أقرب إليه منها ولكن لا يهم ....

غَزَلت نسيج عقلي بألوانه لتتسرب داخل أحشائي، ولتمر بدهاليز عمري فنختلط سويًّا وأتلون به ... يا لـه من ملاك أخذ قلمي يسطر له عبارات وكلمات لتتحول إلى فرشات ترفرف في أجوائي وتمر بي لتقبلني قبلة امتنان وعرفان له ...

هكذا صرت أتلمسه في صباحي وفى مسائي، واعتمدته في سجل أفراحي لأؤكد له بأنه لم يكن فقاعة غرامية ظهرت لوهلة على سطح حياتي واختفت بل هو الحياة....

فكانت الحياة بلا متاعب، بلا عثرات، فكلما سِرْت تعثرت به هو... احتضنته هو ... أَمليت عليه كل أوجاعي، ثم نسيتها بقُبلة حانية ...

حتى عندما تأكدت من استحالة إنجابي ولو لمرة واحدة صار هو ابني، منحني إحساس الأمومة في ثوانٍ ولسنين طالت ..

أَسرَفْت الليالي أدعو اللّٰه أن لا أرى فيه مكروهًا، لأني أعلم تمامًا قلة قدرتي على تحمل ذلك ...

أَذْرفْت دموعًا لا حصر لها فقط لإيماني بمقادير الحياة وبأنه

ولا بد من الفراق يومًا وحتمًا ... فاللهم لا اعتراض لكني كنت على ثقة كاملة بأنني لن أتحمل ...

وقد كان ...

لم أُصدم عندما توقف قلبه عن الخفقان وتجمدت يداه بقدر ما صدمني أنه أبَى أن يودعني، لم يقل لي ماذا سأفعل في غيابه، لم أتدرب على الغياب يومًا .... هو يعرف ذلك لكنه تجاهله كيف يفاجئني هكذا... بأي حق يرحل بلا استئذان؟! لم أتعود منه ذلك أبدًا ...

جَلَسّت بجانبه ساعات وساعات أعاتبه ألومه وأنا التي ما اعتدت العتاب يومًا ...

أتُراه لهذا السبب لم يرد على أسئلتي؟

على كتف من سأنام الليلة؟

مَن سيضع الورود على وسادتي الليلة؟

مَن سيطمئن عليّ في كل لحظة؟

مَن سيداعب شعري حين أغضب؟

مَن سيحتضنني حين أتوجع؟

مَن سيعيد لي أمومتي؟

قل لي يا بني: أي امرأة هذه تَقْوى على فُقَد ولدها وزوجها وحبيبها وأبيها في ساعة واحدة؟! نعم أبي .. فقد مات مرة أخرى ...

توقَفْت عن الطعام واعتزلت الماء، ولم أشعر بفقد أي منهما صدّقني لَم أشعر ...

شعرت فقط بأن الحياة تنسحب من روحي وتأبى الاستمرار ....

وبلا مقدمات وَجَدْت نفسي هنا ...

وكما ترى ورغم امتناعي عن كل ما يواصل الحياة يضعون كل هذه الوصلات علها تصلني بالحياة مرة أخرى لكنهم مخطئون .... أطباء مرضى لم يفهموا يومًا في تشخيص الروح، أما أنا فقد رَحَلْت سلفًا لكنهم لا يصدقون ....

كَفْكَف الصحفي دموعه وتنفس الصعداء فقد انتهت السيدة من حديثها ....

ابتسم ابتسامة خانقة، لكنها لم تستطع حتى ردها ولو مجاملة له ...

طَلَبَت منه أن يعيد تشغيل الموسيقى وهي تتنفس بصعوبة شديدة، أدار ظهره لها ليشغله وفي طريقه إلى الباب توقفَت الآلات عن العزف.... تراجع للوراء مرة أخرى يتفحص الجهاز ظنًّا منه أنه قد أصابه عطل فني، نظر إلى السيدة فوجد ملاكًا نائمًا وكأنها لم تنم ساعة في حياتها ... أيقن في لحظات بأنه لا داعي الآن لكل هذه الأجهزة ...

فقد انْهَزَمَت بلا شك ...

مشى بخطوات متثاقلة نحو الباب حاول فتحه بيديه المرتجفتين، قابل في وجهه امرأة قاربت الأربعين من العمر تُمسك بيدها صبيًّا تجاوز الثالثة عشر ..

سألته عن السيدة فتحدث معها بشفقة مبالغ فيها ظنًّا منه أنها إحدى قريباتها، وحتمًا سيُفجعها الخبر..

- من تكونين بالنسبة لها؟

أنا الزوجة الثانية لزوجها، وهذا ابنه، وجئت لآخذ حقي وحق ابني في ميراث زوجي ...

(٢)

البعض يرونها خائنة

أخَذت تتصفح تلك الأوراق القديمة التي وضعتها داخل صندوق خشبي والتي تَعودت أن تفتحه كل يوم وهي لَم تَملِ تلك الذكريات المنسية التي تمر أمام عينيها المحبطتين والتي هجرها النوم منذ عشرة أعوام، أتى من أتى ورحل من رحل، وهي ما زالت تعيش سجينة الحب والفراق، ترتوي من عذاب الشوق وخيبة الأمل فَلَم يعد أمامها سوى الآهات والتي تكاد أن تخنق أنفاسها ....

تبكي كلما كانت وحيدة هكذا بدون أسباب، فأحيانًا نبكي بدون سبب حقيقي غير أن كل ما حولنا يزعجنا، تتذكر كيف كانت غبية تمامًا كمثيلاتها من الفتيات الشرقيات اللاتي عَلقْن أحلامهن بالزواج فَعَلِقْن في شباك الخيبة ...

كيف ارتضت يومًا أن تتزوج رجلاً اختارت له أمه امرأته وهي التي كانت مؤمنة بكلمات نزار قباني:

«الحب للشجعان، الجبناء تزوجهم أمهاتهم ...»

كيف ارتضت جبانًا؟

تَعْرِف أنها أخطأت بالتأكيد حينما صدقت كلمات متهرئة بأن الحب دائمًا يأتي بعد الزواج وكل ما قبل ذلك لم يكن حبًّا، بل مجرد علاقات عابرة كُتب لها أن تكون منسية..

هي ربما لَم تُصَدّق ولكن لَمْ يُعطِها أحد حق إبداء الرأي واقتنعت سلفًا بأن رأيها لا قيمة له، فلماذا البوح إذن؟

وطن تُكَمّم فيه أفواه الرجال فكيف بنسائه؟!

لكنها لم تكن تعلم أن حبه مثل الموت والولادة صعب أن يُعاد مرتين، كانت تَعْشَق كلمات نزار مثلما تعشقه ...

وبينما هي هائمة دق جرس الهاتف، تحركت بصعوبة لترد، رفعت السماعة لِتُطرب أذنيها بصوت طالما حلُمت أن تسمعه ثانية.. إنه الماضي الذي لَم يغادر حاضرها .... أخذ يسألها عن أحوالها وأخبارها وهي شريدة التفكير تشعر وكأن الحروف تهرب من بين شفتيها، تمالكت أعصابها لتخبره أنها عاشت فقط من أجل هذه اللحظة فأدرك أن فتاته الأولى تنتظره ...

قال لها مندهشًا :

لا أصدق أيُعقل هذا وبعد كل هذه السنين، لقد ترددت كثيرًا في محادثتك لعلمي بزوجك الذي لا تشوبه شائبة أسمع مديحًا عنه هنا وهناك ....

سكتت لحظات ثم قالت:

إذا لَم تجعلك العلاقة مع من تحب شخصًا أفضل فأنت مع الشخص الخطأ ... وأنا لست بأفضل أبدًا ...

- لكني لَم أعهد قراءتكِ لأنيس منصور يومًا ..

- لقد تغيرتُ كثيرًا عما كنت، أحببت أشياء كرهتها وكَرِهت أشياء أحببتها .... إحساسي بكل شيء تقريبًا تَغَير إلا بكَ أنتِ .....

أعلن سعادته العارمة وبادر بطلب مقابلتها وما كان منها إلا أن وافقت فورًا ..

أسرعت لتختار أجمل ما في خزانتها ووضعت تلك المساحيق المزيفة علها تُخفي تجاعيدها المحفورة والتي بدت واضحة على ملامح وجهها ...

تأهبت للخروج هاربة من تقبيل ابنها الصغير ووداعه على غير العادة ... لَحِق بها صغيرها ليعطيها خاتمها والتي تظاهرت أمامه بأنه سقط منها سهوًا ...

قال لها بهدوء وبصوت دافئ:

-أمي، هل تحبينني؟

صمتت لثوانٍ ..

- وما الداعي لهذا السؤال الآن؟

رد ضاحكًا:

-لقد نسيتِ تقبيلي ... فما الذي يمكن أن ينسيكِ طفلكِ المدلل، ثم قفز قفزة طفولية يحتضنها ويقبّل جبينها وقدماه تتأرجح يمينًا ويسارًا وهي مبتسمة تداعب شعره لترتشف السعادة الخفية والتي لَم تنتبه لها يومًا...

دق جرس الهاتف لتذهب نحوه وهي تحاول أن تستوعب تلك الروح التي دبّت في أجزائها من جديد، رفعت السماعة فإذا به يسألها عن سبب تأخيرها فترد بسرعة وقبل أن يكمل حديثه وتعتذر عن الحضور فيُصر أن تحدد له ميعادًا آخر، لكن موقفها لَم يتغير ...

حدثها مندهشًا ما الذي تغير في تلك الساعة ... لِمَ ترفضين الآن ...

أجابته:

استطعت أن أكون زوجة خائنة لعشر سنوات ولم أستطع أن أكون أُمًّا خائنة لعشر دقائق ...

(٣)

أخيرًا ...... سأرحل

كان يومًا ثقيلاً، استيقَظْت بصعوبة شديدة رغم أنني لم أنم طوال الليل، توجهْت إلى المطبخ لإعداد الفطور وكل شيء كنت أمسكه بيدي يسقط فورًا حتى تمالَكْت أعصابي وانتهيت ....

بعدها جلسنا نتناول الطعام في صمتٍ مرعب، جلس هو على أريكته المفضلة ليتصفح تلك الجريدة المعتادة ويشرب فنجان القهوة المعتاد أيضًا ثم لَمْلَم أوراقه وابتسم لي ابتسامة عريضة وذهب .....

أَغْلَقْت الباب وراءه وتوجّهت ببطء شديد إلى غرفتي..

أحضرْت حقائبي لأضع فيها ملابسي وأشيائي الشخصية وكَم أكره تلك اللحظة، ففي كل مرة كنت أفعل فيها ذلك أنسى أشياء مهمة، ولكن من الواضح أن هذه المرة لن أنسى شيئًا لأنني ببساطة سأضع كل شيء يخصني في هذا المنزل ....

كنت في كل خطوة أخطوها أشعر وكأن قلبي قد توقف عن الخفقان، ثم يعاود الحياة مرة أخرى .... أسمع دقاته السريعة المتتالية وكأنه يريد أن يقفز من بين ضلوعي ومع ذلك لَمْ أتقاعس عن وضع الطعام لعصافيري ولا عن وضع الورود في تلك المزهرية التي على الطاولة ....

وبعد أن تأكدت أنني انتهيت من كل شيء جَلَسْت على أريكته المفضلة وأمسكت بورقة وقلم وكتبت:

«لن أسألك ثانية لأنني سئمت كل الردود البالية والتي حفظتها عن ظهر قلب، ورغم فضولي الأنثوي الذي يقودُني إلى سؤالك وتلك الأفكار التي تتناثر داخل عقلي ... لن أفعلها ... لقد جعلتني أكره أحاديثنا المصحوبة دائمًا بصراخك لتعلن أنك الأصح في كل مرة ....

تعشق أنت لذة الانتصار وتحتكره لنفسك وتعلم أنت كَم أنا أحبك فتتمادى في أخطائك ولا تتعثر بها، تتكاتف قواك لتحتل روحي وتتوغل أنت في كل ركن من أركاني فتستوطن داخل أنفاسي ولم تعبأ بامرأة استماتت عزائمها وتوالت هزائمها ....

امرأة دهستها الأقدار تحت قدميها لتلقي بغبارها على وجه أبَى أن ينحني يومًا فانحنى ....

امرأة أودعتها الحياة داخل صندوقها الذهبي ورمت بها في محيطات الغد تصارع أمواجًا لا تهدأ للحظة واحدة ....

امرأة سَيّر مركبها قبطان يستأثر بالتجديف لنفسه حتى لو كلفه ذلك غرقها ....

وتحملت كل ذلك بلا غضاضة ..

لكن أن تطأ قدمك أحاسيسي فيا له من جُرم أراهنك أن تتحمل عواقبه فأنت أضعف من أن تصطدم بصخور صمتي أو تتغلب على أنياب ثورتي ....

فالآن والآن فقط سأستجمع تنهيداتي المتقطعة لأعزف مقطوعة صراخي فوق مسارحك المبهرجة، سأتوحد مع أجزائي ثانية وأتوازن من جديد، متحررة من تشريعاتك، مُنددة بسقوط إمارتك، ستسمع هتافاتي ليل نهار إلى أن تصبح يومًا أسطورة مُمزقة يتجنبها القراء ويلعنون أحداثها، بينما يتهافتون على قصة امرأة اجتازت حدود الزمن لتصرخ:

«لا» أنا حرة ....

سأتركك أخيرًا فقد أتعبني قتالي لأجلك وأظن أنه قد أتعبك أنت أيضًا ... ولَمْ أفهم حتى الآن كيف لَمْ تَمِل تلك الحِيل الصبيانية لتبرر أفعالك المراهقة الحمقاء ...

صدقني كرهت كل شيء فيك إلا قلبك الذي أحبني يومًا ..... أحبك».

هكذا كانت رسالتي له، وضعتها بجانب فنجان قهوته ورحَلْت وأنا أسير ببطء لَم أعهد عليه من قبل ....

وفي طريقي إلى السيارة تذكرت أنني نسيت شيئًا وبرغم أن أمامي الوقت الكافي لإحضاره لكنني لن أفعل ...... وسأرحل.

(٤)

مجرد عملة

جَلَسَتْ على مقعد المترو غير المريح عادةً، تنتظر انطلاق عرباته بفارغ الصبر؛ فاليوم هو يوم الفرصة التي لطالما حلمت بها، فهي لا تصدق أنه أخيرًا سيتم افتتاح أول معرض لها كفنانة تشكيلية، معرض يحوي لوحاتها والتي رسمت عليها تفاصيل حياتها بأحزانها وأفراحها، بتجاربها الماضية وأحلامها القادمة ... أخيرًا انطلقت العربة مسرعة متوقفة عند كل محطة وكأنها تقف على أحداث حكايتها معه ....

هنا أهداني هدية عيد الحب..

هنا كان يصالحني بعد مشاجرة طويلة..

وهنا قرر وداعي بأعذارٍ واهية أعاد لي كل ما يخصني وطلب مني أيضًا كذلك ...

كان يعتقد بأن هذه الذكريات ربما تعرقل خطواتنا القادمة ولا بد أن يبدأ من جديد ولا داعي لبقايا الماضي ... أخذ كل شيء يخصه إلا أنه نسي عملة.. مجرد ورقة كتب عليها: «سأظل أحبك ما حييت».

ترك فيها رائحة أيامه العطرة وبصمات أصابعه الحانية، فتحت محفظتها تتلمس ما تبقى منه فتُفاجأ بسرقة كل ما لديها من نقود ...

وبكل تلقائية اطمأنت على وجود هذه الورقة التي وضعتها في مخبأ صغير في محفظتها، فقد كانت بالنسبة إليها أثمن من كل ما تملك ...

تَنَفّست بصعوبة لتجد نفسها في المحطة المنتظرة .. لقد وَصلَت..

ولكن ... بعد نزولها استوعبت أنها لا بُدّ وأن تستخدم وسيلة أخرى، فماذا تفعل؟ وكيف تفكر؟ ..

إنها العملة ... نعم ... ولكن!

هذا مستحيل يا لسوء حظها! أيجبرها القدر على أن تبدأ أول خطوة تخطوها في حلمها بالتخلي عن آخر ما تبقى منه، أحيانًا حين نقرر أن نبدأ شيئًا نُرغم على أن ننهي شيئًا آخر هناك أشياء لا تجتمع مع بعضها أبدًا ومهما فعلنا تبدو متناقضة ..

أيضًا توجد أحلام متنافرة لا تتعايش أبدًا مع بعضها البعض يرفض كل منهما الآخر ويقف كل منهما بعيدًا لنقرر نحن من نُبقي وعن من نتخلى .. من نميت ومن نحيي ..

هي كذلك وجدت نفسها مجبرة على أن تترك عملته وليس أمامها خيار آخر ولا تملك إلا دمعة وداع سقطت لتقبل أثر أنامله الدافئة.

(٥)
فَأَحَبّتْ

على طاولة مستطيلة أجلس بجانبه في مكان يملؤه الصّخب أنظر يمينًا ويسارًا قلبي يرتعد ...

يُشير إلى كأسي الممتلئ فأبتسم وأُمسك به لأشرب، يبتسم هو كعادته دائمًا .... يهز رأسه ببطء على موسيقى يعشقها، يمد يده إلى يدي يدعوني للرقص معه، أقف واجفة أمامه يقترب مني يتمسك بيدي بشدة، أما يده الأخرى فتحتضن خصري بقوة ناعمة ....

تؤسرنا الأضواء الخافتة، أضع رأسي على كتفه وأغمض عينيّى، أغرق في الاسترخاء ، أفكر كيف كانت كل أيامي معك ...

تحت ضوء الشموع ذابت آلامي تبدلت أوجاعي، أرحت يديّ المنكمشتين لتعانق يديك، أتحدث إليك فتبادلني ابتسامة شافية، أغضب منك فتبادلني قبلة مخدرة ..

أقول لك: «أحبك» فترسم لي وشمًا بحروف اسمي ....

ترى دموعي فتتنبأ بأحزاني، وعندما يستهويني الرقص معك نرقص سويًّا حتى الصباح ....

نتمايل بالرقص فوق الآلام، نلهو بأحزاننا فنحطم أجزاءها ونلقي بها في توابيت الماضي، نداعب ذلك الوجه البائس العبوس لنرى ثنايا

المستقبل ونتوارى في أحضانه إلى أن نغفو شيئًا فشيئًا متطفلين على أحلامنا الوردية التي طالما اضطهدت وجودنا فنتسامح معها لتتفتح أعيننا على بريقٍ بعيد ...

نُزيح ستائرنا السوداوية لنراها كما هي عالية ساطعة فَلِم لا نتعلم منها فدائمًا تُشرق ودائمًا تُنير ...

أنظر إلى تلك الخطوط المتسللة إلينا من هذا القرص الذهبي علها تُذيب أفكارًا صلبة اعتادت المألوف دائمًا، علها تمنحنا أجنحة الحرية فنحلق بعيدًا تاركين همومًا طائلة لأناس أشبعتهم الحياة آلامًا وحرمانًا، أناس أرهقتهم قيودًا لا حصر لها يُعاقبون بذنوب لَم يقترفوها يومًا، سنراها الآن همومًا لا تُرى بالعين المجردة ....

دعنا لأول مرة لا نهتم بها كثيرًا، دعنا نُعانق كل هذه النجوم، نتكئ على هذا الشكل الهلالي المضيء لنرسم لوحة للحياة وبأيدينا نجعلها أجمل ما تكون لنمنعن النظر في هذا الكون، نستمتع بكل شيء فيه وإن لَم تصل الأشياء إلى درجة الجمال علينا أن نجعلها أجمل مما نراها ....

دعنا نتحرر من قبونا الغامض ...

هكذا أَحْبَبْت دنيانا فقط؛ لأنه ينتمي إليها لا لشيء آخر، علمني أبجديات الحياة وأول عين أبحرت فيها كانت عيناه، عرفت معه معنى التضحية ونزع من قلبي الأنانية فلم أعد أحب نفسي بقدر ما أحببته ...

منذ أن عرفته لم يحالفني حظي بأن أتجمل أمام مرآتي لأني بت أراه فيها دومًا ...

كثيرًا ما يسألونني قريناتي في الحب عن سر سعادتي معك كانوا يُلحون في طلب رؤيتك ولو لمرة واحدة ليكتشفن بأنفسهن سر مثاليتك في الحب، كنت أخشى عليك منهن فأخاف أن يقعن في غرامك من أول وهلة .... لا بل خفت أن يرمقونني بنظرات الدهشة كتلك التي ألحظها في عيون المتطفلين ممن حولنا ....

انتهت الرقصة فأفقت من غفوتي لأجد صديقاتي يلوحن لي بابتسامات متطفلة، فقد وافَقْت أخيرًا على إلحاحهن الشديد وتظاهرت أمامه بأن وجودهن في نفس المكان صدفة ...

اقتربنا منهن، بدأن بتحيته فأشار لهن برد التحية ...

لَم يستوعبن في بادئ الأمر، توقعن أنها ربما تكون مُزحة منه لا أكثر ...

بدأت إحداهن بالحديث: كيف جعلتها تشعر بكل هذه السعادة معك؟

أجابها بإشارات لم تفهم منها شيئًا ....

وبدَأْت أنا بالترجمة:

هي من منحتني السعادة لا أنا؛ فهي حالة غير تقليديه لامرأة تحب بجدية أكثر من اللازم ....

ساد الصمت المكان وتجمدت وجوههن دهشة واستغرابًا..

لَم يزعجني ذلك يومًا فلست ممن يهتمون بتلك السخافات، فهل تزعجني الآن؟

أن تعتاد أصدقاءك وأماكن صفوك فهذا أمر طبيعي، لكن أن تعتاد سخافات البشر فهذه فلسفة غير مقبولة تُرغمني على اقتحامها وفهم كينونتها، وأن أتحرر للحظات من قصور الخيال لأنظر نظرة ثاقبة من شرفته على شارع الواقع المؤلم ...

لا ... لن أهتم .... لن أكترث، فهن لا يجدن أحاديث القلوب لأنهن لا يملكن القدرة على التأمل قليلاً أو حتى الصمت قليلاً ...

أعرف أنهن الليلة اتهمنني بالجنون لفقده صفة من صفات البشر والتي بالنسبة لي أسوأ صفات البشر ...

(٦)

شتاء لأول مرة

مع بداية يوم ليس كباقي الأيام لأناس كثيرين -وبالنسبة لي بالأخص- بَدَأت أستعد لهذه الليلة استعدادًا مضنيًا بحق .....

اخترت فستاني بعناية، أنفقت الكثير في أرقى أماكن التجميل، أمضيت الساعات في مطبخي لإعداد طعام يناسب الليلة، وقَفْت أمام المرآة أتأمل فستاني المُبهج بالنسبة له وتسريحة شعري المميزة بالنسبة له أيضًا، وأناقتي التي لَم تكن معتادة أبدًا بالنسبة لي ...

وضَعْت عطري المفضل ... لا ... بل عطره هو المفضل وجلَسْت على تلك الطاولة أتأمل عقارب الساعة علها تتوقف عند الثانية عشرة ...

قلبي يخفق بشدة وذابت الشموع أمامي بالكامل..

تَثلج الطعام فلَم يَعُد بعد صالحًا لتناوله ....

وبدون إذن مُسبق دقت الساعة ومعها قلبي .....

.....لَمْ يأتِ ......خيب ظني ....

أعلم جيدًا أننا افترقنا ولكن ليس لهذه الدرجة، فهذا اليوم مميز جدًّا لكلينا، كنا في كل سنة نحلم معًا بأمنيات قادمة في عام قادم، كنت أريده فقط أن يشاركني فكرة الحُلم ليس إلا ويتركني وحدي أتابع حلمي ...

أريد فقط أن يعطيني قوة أواصل بها بقية العام ليأتي في نهايته مرة أخرى يجددها لي ..... لا ...... بل أريده هو الآن يقف أمامي لثوانٍ، ثم يختفي أو الأفضل أن يختفي من داخلي .....

أشعر وكأنه يمتلك كل جزء بداخلي، أحاول أن أتنفسه فأشعر بأنفاسي تختنق ....

هو حولي في كل أرجاء المكان لا يمكن أن أحتمل كل هذا ....

أفتح كل النوافذ ليتسرب منها بعيدًا لكني لَم أفلح ...

أنظر للخارج فأجد أشخاصًا يتبادلون السعادة هناك تحت المطر فَلِم لا أحتفل معهم وأفضل شيء أنني لا أعرفهم ولا يعرفونني ....

أخذت معطفي المهمل ومظلتي المهملة أيضًا وذَهَبْت إلى حفلة المطر .... وما هذا البرد والصقيع المدوي .....

أشعر ببرودة في كل جسدي بشكل لا أتحمله، فلأول مرة أكتشف هذا الفصل من السنة، كنت أظن سابقًا بأن العام كله فصل الربيع ولم أكن بحاجة يومًا لمعطف أو مظلة إلا الآن ......

بدأت أتمايل بمظلتي على أنغام لم يسمعها ولا يعرفها أحد غيري وأُتمتم بعفوية غير مسبقة ....

قدماي لَم أَعُد أتحكم بهما، فقد أدمنت الرقص فوق المطر وفقدت السيطرة على عينيّ بِتّ أشعر أن كل هذا المطر لم يتساقط من السماء بل من عينيّ .....

وفجأة ....

سَمِعْت صوت سيارة تتوقف بقوة أوقفتني بدون تردد ووقف سائقها أمامي في ثوانٍ ..

لَم أُصدق لقد عاد أخيرًا ليُشاركني رقصتي وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفاهي قبل أن يبدأ سائق السيارة بالكلام:

(أنتِ عميا؟ ما بتشوفيش حد يعمل كده في الشارع ؟... إيه البلاوي دي!!).

واستقل سيارته ليذهب بعيدًا .....

(٧)
نصف رجل لا يكفي

يمر يومها عادة بلا وقائع أو أحداث، ربما لأنها تحاول أن تتحاشى كل ما يحدث، حتى تأتي تلك اللحظة فترتبك عضلاتها وترتجف يداها وهي تطفئ الضوء الخافت لغرفتها لتغمض عينيها استعدادًا لليوم التالي ..

تتنفس بصعوبة في انتظار أحلامها لترى أحاديثهما الجانبية ترافقها وهمساتها له تتمثل لها كرصاصات الحروب النازية وتلك الضحكات التي تفجر صمامات قلبها ...

تراه يهديها ورودًا وتتألم هي بأشواك الغيرة، تراقبه وهو يتودد إليها وهي يتوجها إكليل الصمت ليجعل منها شاعرة الحزن والأسى يسطر قلمها الأصم على أوراق ذكرياتها أحاسيس من حمم تتفجر من بركانها الثائر، وتطفو فوق أجنحة الأحلام فوق الضباب والسحب لتعيش حتى في أحلامها حياة الأنين ...

ألم تكفه سطور الواقع الرحيبة ليكملها في مناماتها ويحوله إلى غابة موحشة تشتاحه العواصف المدمرة وجو قاتم أغبر ..

هكذا أبعدها عن نفسها، وحفر في قلبها جرحًا مستقرًا لن يزول أبدًا لتستيقظ كل يوم من نومها رافضة له متحاملة عليه وتحمله أوزار كوابيسها ويتجرع هو مرارة مناماتها، بينما تشاهده يجفف

دموعها، يضمد جراحها ويتقدم لها بما لا يخطر على بالها ويتناوب في إسعادها ..

لكن شيئًا ما يؤرقها بقربه ويباعد بينها وبينه يومًا تلو الآخر ..

ربما مجرد إحساسها بخيانته لها جعلها تشعر بأنها الحقيقة ..

ولكن ..

هل من المنطقي أن تجعل أحلامها تسيطر على كل حياتها وأفكارها بشكل لا يمكن أن تتحرر منها؟

في الحقيقة هي لا تعلم ..

كل ما تستوعبه هو أنها لن تتخاذل في البحث عن الحقيقة التي تطاردها كل ليلة، تريد فقط دليلاً واحدًا يوضح لها حقيقة إحساسها .... وبدأت تتوصل إلى أن معرفة الحقيقة صعبة للغاية والأصعب منها هو طول الانتظار ..

فقمة الألم والإرباك في آنٍ واحد هو أن تنتظر شيئًا مجهول المعالم ورغم ذلك تتملك قوة رهيبة في تحمل هذا الانتظار مهما طالت مدته ..

كانت تشعر أحيانًا بالجنون حينما تجند كل وقتها في التفكير عن امرأة لا تعرفها، لكنها تتحكم في حياتها، امرأة تتخذ منها موقفًا عدائيًّا وتحملها فشل حياتها مع رجل لم تتزوجه بعد قصة حب طويلة لكنها احترمته أكثر مما أحببته، أو ربما أحببته بشكل لا يفهمه هو ، فيكفي أنها لا تستطيع أن تتخيل حياتها بدونه فهو من أعطاها الثقة في الحياة وفي نفسها أيضًا ..

جعلها تصدقه في كل شيء في كلماته وأفعاله كلها بدون تفكير، فلماذا تلك المرأة تهدم الآن كل هذه المعاني؟ ولماذا تطاردها ومصرة كل يوم أن تقول لها: أنا هنا؟!

كم تمنت لو كان بوسعها أن لا تنام حتى لا تجد ما يضايقها، وأصبحت نعمة النوم التي يلجأ إليها كل إنسان للراحة بعد طول عناء شيئًا مؤلمًا ومزعجًا أيضًا .....

في وسط انشغالها في التفكير المضني في غرفتها المفضلة دخل عاصم ليقطع تدفق أفكارها فجأة ويطلب منها مرافقته لحفلة عشاء تخص عمله بالشركة لم توافق في البداية، فهي لا تحب تلك التجمعات والمجتمعات السخيفة ولا يستهويها مرافقة أناس لا يمتون لها بأي صلة ولم يسبق لها أن تعرفت بهم لكنها في نفس الوقت وجدتها

فرصة سانحة لاستكشاف ما لا يمكن معرفته وهي جالسة هنا في بيتها ومنفصلة عن العالم الخارجي .....

أبلغته قبولها بحضور تلك الحفلة واستعدت للذهاب في كامل أناقتها المعتادة كما تظن هي دائمًا، هي التي تشعر عادة بتميزها عن بقية نساء العالم .....

ركبا السيارة وانطلقا ..... كان عاصم مليئًا بالحيوية والنشاط وكل كلامه معها لا يشوبه أي نقص ولا تنكر أبدًا أنها كانت مستمتعة جدًّا وقالت له:

لا أتخيل حياتي بدونك ..

فابتسم قائلاً: ولا أنا ..

وصلا إلى مكان الحفل... لم يكن مملاًّ كما توقعت فالحضور رحبوا بها كثيرًا وبدأت تتجاذب أطراف الحديث معهم ..

وفي وسط الاحتفال دخلت امرأة ملفتة بعض الشيء برغم أنها لا تتميز بشيء أكثر من النساء الحاضرات إلا في فرط ثقتها بنفسها، أخذت تتلفت يمينًا ويسارًا وكأنها جاءت لشخص بعينه، أما هي فقررت متابعة حديثها وتركها وشأنها لكنها فوجئت بصمت من

النساء الجالسات معها، حاولَت الاستفسار عن سر هذا الصمت فلم تجد جوابًا غير هذا الارتباك الذي لاحظَته، وبشكل واضح في طريقة كلامهن معها ...

التفتت وراءها لتبحث عن زوجها عاصم والذي اختفى فجأة لتجده يتحدث مع تلك المرأة التي كانت تثير فضولها منذ عشر دقائق ..

ربما هذا لا يهم، فمن الطبيعي أن يتحدث مع زميلاته في العمل لكن ما يهمها الآن هي تلك الطريقة التي يتحدث بها والطريقة التي تتحدث هي بها أيضًا وكأنها تشاهد مشهدًا من فيلم سينمائي شاهدته من قبل وأزعجها لكنها أجبرت اليوم على رؤيته ..

إنها هي....

نفس الأسلوب والحركات والضحكات ..

حاولت أن تتمالك أعصابها قليلاً لكنها لم تستطع، وبعد لحظات وجدت نفسها تقفز من مكانها لتقف معهما، وبشكل غريب قدمها لها ووجهها يملؤه الجمود فلم تبتسم لها كما كانت تبتسم له منذ لحظات واكتفت بسلامها البارد بأطراف أصابعها ....

شعرت فجأة أن شيئًا ما يربكها وأنها لا بد أن تترك هذا المكان

فورًا، فطلبت من عاصم المغادرة لأنها تشعر بصداع شديد فلم يوافق، وبعد إلحاحها قال لها بكل بساطة: إن كنت ترغبين بالعودة للمنزل فافعلي ما شئتِ..

فسألته: هل تقصد أن أذهب بمفردي؟

أجابها: وما المشكلة في ذلك؟ خذي مفاتيح السيارة وعودي للمنزل.

- وأنت كيف ستعود في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

- سأتصرف، لا تشغلي نفسك بي ....

شعرَت في هذه اللحظة أنه يود أن يقول لها:

اتركيني وشأني ولكن بطريقة أخرى ...

غير أن طلبه الذهاب بمفردها بهذه السهولة جعلها تتشبث بالبقاء لنهاية الحفل ..

ومرت الدقائق البطيئة وهي تراقب ... فقط تراقب تلك المرأة لا شيء أكثر من ذلك، وتتبع نظرات عاصم لها من بعيد لتسأل نفسها مرارًا:

ماذا تمتلك هي أكثر مني؟

وكانت إجابتها في كل مرة: لا شيء.

فلا أحد من الرجال يعيرها اهتمامًا غير عاصم، وفجأة اختفت تلك المرأة من أمامها وفجأة أيضًا اختفى عاصم ..

فهل هذه صدفة ... أم ماذا؟

قفزت من مقعدها تبحث كالمجنونة في كل ركن عنهما وتبحث عن الحقيقة أيضًا ...

دلفت للخارج لتجدهما من بعيد يتجاذبان أطراف الحديث بتلك الصورة المشبوهة ربما بالنسبة لها على الأقل، حَاولَت أن تقترب منهما لتستمع إلى أحاديثهما عن قرب بدون أن يشعرا بوجودها ..

كانت يداها تتجمد شيئًا فشيئًا وقدماها تتراجع للوراء، لكنها أصرت على المواصلة ..

سَمِعَت هذه الكلمات قبل الليلة بنفس الطريقة والانفعالات.. نعم... إنه الحلم ...

بل الكابوس.. هذا ما كانت تراه وتسمعه كل ليلة ..الجديد أنه

أصبح واقعًا ملموسًا ليس بوسعها الآن تجاهله أو حتى تكذيبه، إنها الحقيقة ....

اقتربَت منهما شيئًا فشيئًا..

وفاجأته في كبرياء: لن تراني مرة أخرى وذهبَت ...

قال لها بعد أن تقدم وراءها: ماذا سمعتِ؟

فلم تجبه ...

كرر سؤاله لها: ماذا سمعتِ ...

أخبرته بأنها سمعت كل شيء وليس الليلة فقط بل كل ليلة ...

قال بدهشة: ماذا تعني أنا لا أفهم شيئًا؟

هل تعني أنك كنت تعلمين بكل شيء ... مستحيل

قالت له: لقد خالفت كل ظنوني يا عاصم، كنت أعتقد يومًا بأن إخلاص المرأة يتناسب طرديًّا مع إخلاص الرجل، وهذا ما كان يجعلني باقية بجانبك كل هذه المدة ... إخلاصي لك!

كنت أعتقد يومًا أنك خالفت كل القوانين الذكورية وتمردت عليها بإخلاصك لي لكن ومن الآن ...

لن تراني مرة أخرى ....

وذهبَت ...

فرغم شخصيتها المتسامحة لم تكن أبدًا قادرة على غفران نزوة يتيمة في حياته رغم اعترافه بالخطأ والضعف أيضًا.

كانت دومًا تؤمن بأن الاحتفاظ برجل ضعيف إيذان بنكسة عاطفية قادمة وقد اكتفت ..

أخذ يناديها مرارًا: لا تتركيني فأنا أحبك أنتِ..

أريدك أنتِ ... أنتِ فقط ...لكنه قانون الرجال يا حبيبتي فامرأة واحدة لا تكفي ...

استوقفتها هذه العبارة فتوقفت للحظات وعيناها تملؤها الدموع لتخبره.

حسنًا ... ونصف رجل لا يكفي أيضًا..

(٨)

حــب افتراضـي

في غرفتها التي لا تنفذ إليها بقعة ضوء سوى ضوء شاشة هاتفها.. تجلس هي كما تحب دائمًا، تفترش الأرض وعلى أنغام فيروز ..

«بحكي عنك يا حبيبي لأهالي الحي .. بتحكي عني يا حبيبي لنبعة المي ..

ولما بيدور السهر ... تحت قناديل المسا..

بيحكو عنك يا حبيبي وأنا بتنسى ..»

ترتجف ... تتنهد .... وتتذكر أيضًا، كم تمنت لو يختفي هاتفها يومًا وإلى الأبد ...

كم تمنت لو يحدث خطأ تقني فتضيع في ثوانٍ كل ما تحمله ذاكرة هاتفها ..

وتسأل نفسها كل يوم:

ما الأسهل أن يفقد هاتفي الذاكرة أم أفقدها أنا ؟

تجد نفسها بلا تفكير تعيد قراءة كلماته في شاشة مُصمتة، تقرأ كلمات مجرد كلمات ولا شيء أكثر، وماذا أخذت هي منه غير الكلمات ولكن كانت بالنسبة لها الحياة .... وكَم أنهَكت عقلها في التفكير كيف لها أن تحب رجلاً لم يفلح يومًا إلا في خذلانها ...

رجلاً بَدل كل قناعاتها، كل أحلامها، كل أوجاعها لتعيش في عالمه الافتراضي بقوانينه هو وبشروطه هو .....

كيف آمنت في لحظة بأنه طالما تلاقت الأرواح فلا داعي لتلاقي الأجساد ...

كيف آمنت بأن لا تتنفسه بأن لا ترى ابتسامة عينيه حين يبتسم لها ....

كيف آمنت بأن لا تذوب في شفاهه حين ينطقها بعفوية:

«أحبـــك».

تركت كل شيء لتُبدلها بحروف لا تشعر، لا تنبض .. كيف سمحت لنفسها أن لا يرى دموعها مرة ....

أن يبدي إعجابه المبالغ فيه في ثيابها الأنيقة ..

أن يتوقف قلبه حين يسمع صوت كعبها وهو ينتظرها ...

كيف لا تَشتاق إلى أن تراه يتصبب عرقًا حين تضحك هي على إطرائه لها؟!

في الحقيقة هي لم تؤمن بهذه الحياة، بل آمنت به هو، استسلمت لعقائده التي ما اقتنع بها يومًا.. حتى إنها تطوعت لنشر عقيدته

بين من تعرفهم ، لم تقف لوهلة أمام أسئلة المتعجبين، كانت تحفظ إجاباته عن ظهر قلب..

أَحَبته وفي محراب الحب يُلَوح العقل في كبرياء ليقول لها: وداعًا.. وفي وداع العقل يمكنك اعتناق «اللامنطق» ..

يعرفه أصدقاؤها، تتحدث عنه ليل نهار، بينما ينهرها هو إن تجرأت وكتبت تعليقًا على ما يكتبه في صفحته الشخصية (فيس بوك).. يُفصِح عما بينهما، وتتجمد يداه أمام ما تكتبه على صفحتها وهو يعي تمامًا أنها له ..

كان يتعذر دائمًا بأن غضبها من شيء كهذا يعني اهتمامها بالتفاهات، وأنها لن تكف أبدًا عن أفعال الفتيات الحمقى والتي يكرهها كثيرًا..

تتصفح هي الآن صفحته الشخصية وترى كيف أصبح الآن:

تَغَير كل شيء كلماته، اختياراته وحتى أصدقائه يبدو أنه أحب من جديد وكعادته لكل علاقة احتياجاتها، فالعلاقة الجديدة تعني له حياة جديدة ...

وتُحدِث نفسها:

لكني أرى عدالة السماء تتحقق في عباراته اليومية، لا بد وأنه قد أحب بصدق تلك المرة ...

تنتفض على صوت رسالة من هاتفها الآخر والملقاة بجانبها على الأرض..

لتقرأ:

«منذ أن عرفتك وحياتي تغيرت بالكامل في أصدقائي وكلماتي واختياراتي ..

أَلَم تلحظي ذلك في صفحتي الشخصية ... كم أحبك».

ترد هي:

«وكم أصدقك يا حبيبي ..».

تترك الهاتف لتُمسك بهاتفها القديم وتدخل على صفحتها الشخصية لتكتب:

«أن تقرري حب رجل من خلال تلك الشاشة المتحجرة فأنتِ ترتكبين كل ذنوب العمر في لحظة واحدة ... فالحب قبلة».

أأأ

(٩)

أرجوكِ ... لا تفقدي عقلك

دَقت جرس الباب في عصبية تفتح لها أمها الباب ...

- ما بكِ يا ابنتي؟

- لا شيء.

تضع حقائبها الثقيلة بجانب الباب متجهة إلى غرفتها وتغلق الباب بعنف ..

تخرج أختها الصغرى من غرفتها ..

- أمي ... هل أتى أحد؟

- نعم .. أختك.

- وما هذه الحقائب؟

- من الواضح أنها تشاجرت مع زوجها للمرة الألف ولكنها لَم تقل لي شيئًا..

- لقد أصبحْت أكره فكرة الزواج كلما رأيت أختي ومشاكلها التي لا تنتهي مع زوجها..

- نصَحْتها كثيرًا وتحدثت معها أكثر لكنها لا تفهم، لا تستوعب

ولا تستطيع أن تتعايش مع طباع الرجل ..

- ليست كل النساء مثلكِ يا أمي.. وكل الرجال ليست كأبي أيضًا؟

- تبتسم الأم لبراءة ابنتها ... الرجال كلهم سواء يا بنيتي أبيكِ مثل زوج أختك مثل زوج خالتك مثل أخيكِ لا فرق أبدًا بينهم ...

- يبدو أن الموضوع ليس سهلاً..

- ليس في الأمر صعوبة، الرجال لا يختلفون كثيرًا، والتعامل معهم يتطلب قدرًا كافيًا من اللا مبالاة ..

- كيف ذلك يا أمي؟

- سأقول لكِ ..

إن قررتِ العيش مع رجل شرقي في بيتٍ واحد فاتركي عقلكِ على الباب، تعاملي معه بقلبك، بإحساسك لأن العقل حتمًا سيتمرد على العاطفة وحينها تبدئين بالعناد ومن هنا تبدأ المشاكل ..

سيشتكي منكِ بسبب اتصالاتك المتكررة له في عمله وبأنه مشغول للغاية ولا يملك الوقت الكافي للرد على كل مكالماتك التي لا تنتهي ..

ستأخذين حديثه مَحْمل الجَد وتشعرين بوخز كرامتك، ولن تتصلي به في عمله أبدًا معتقدة أنكِ بذلك ابتعدتِ عن المشاكل وارتاح هو، لكنكِ ستفاجئين بعتابه لكِ وغضبه منكِ لأنكِ لَم تفكري في الاطمئنان عليه، ولم تشتاقي إليه، ولَمْ يخطر على بالك في غيابه ..

ستثورين أنتِ وتنتابك الحيرة وتقفين مكتوفة الأيدي تسألين نفسك كالمجنونة في غيابه:

أأتصل به أم لا؟

والموضوع أبسط من ذلك ... عندما يريد أن تقتربي يطلب منكِ شيئًا وحينما يريد أن تبتعدي قليلاً يطلب منكِ عكس الشيء تمامًا ليس لأنه مَل اقترابك أنتِ بل فكرة الاقتراب في حد ذاته..

في الغالب أفعاله ليس لها علاقة بكِ بشكل شخصي الأمر يتعلق بمزاجه الشخصي لا على شيء آخر .. أنت لا ذنب لكِ، فلا تتأذي..

سيقول لكِ: «أحبك»، وهو ينظر لغيرك ويتلصص عليهن أينما تواجدن وسيقول لكِ:

«أنتِ أجمل من رأيت» ..

صدقيه فهو لا يكذب، هو فقط يمارس طباعًا ذكورية غُرست فيه يفعلها يوميًّا من دون أن ينتبه ماذا يفعل .. تلك الأفعال بالنسبة له مثل الطعام والشراب، مثل ذهابه إلى العمل يوميًّا ... يفعل ذلك يوميًّا من دون تفكير وإن أصابتكِ الجراءة وواجهتيه بأنكِ رأيتيه يسترق النظر إلى أخرى سَيُنكر تمامًا لدرجة أنكِ ستتراجعين وتقولين:

ربما كنت مرهقة ورأيت أشياء لَم تحدث ..

وإن صارت له صديقة في العمل لا تفقدي ثقتك بنفسك ... الفرق بينك وبينها أنه لا يراها يوميًّا كلما عاد إلى المنزل ..

واهدئي سيَمل بعد شهور عندما يراها يوميًّا في العمل، وسيبحث عن أخرى في مكان ثالث لا يذهب إليه كثيرًا ..

لا تصابي بالجنون حين يتحدث أمام صديقاتك بهذه اللباقة المصطنعة وحين ترينه يتخلى عن أفكاره الثابتة في لحظة، ويتحدث عن مساعدة الزوج لزوجته في أعمال المنزل وهو لا يُحرك كوبًا من مكانه..

تذكري وقتها أن للضرورة أحكام وجارِه في حديثه واعتبري تلك الجلسة مقلبًا اتفقتما أن تفعلاه بصديقاتك ..

وما أن تتركيهن انسِ الأمر تمامًا ..

إن امتدح امرأة أخرى وافقيه الرأي ولا تتذمري فإن تشاجرتِ معه فأنتِ تافهة وإن بدأتِ الذم فيها فأنتِ غيورة وغير واثقة بنفسك، امتدحيها بشيء من المبالغة وسيترك الحديث عنها فورًا..

إياكِ أن تمتدحي رجلاً يكرهه ولا أريد أن أقول لكِ ماذا سيظن بكِ وقتها، اكتفي بالموافقة على كلامه وعدم التعقيب ...

أرجوكِ لا تقتليه إن وصفكِ بالمجنونة حين تغارين من قريبته التي يراها طفلة مع أنها تجاوزت العشرين عامًا، ويبرر لكِ قبلاتها ورسائلها له الطبيعية جدًّا وأنكِ تفتشين عن فرصة للنكد لا أكثر ...

ويُجن هو إن اتصل بكِ قريبك الذي لم يتجاوز الخامسة عشر مبررًا ذلك بأنه صار رجلاً ولا تحسني النية في تصرفاته معكِ وقائمة من النصائح لا تنتهي ..

هو يتفوه الآن بعكس ما قاله بالأمس، ولن يجد غضاضة في ذلك.. لا تستعجبي فبمجرد أنه رجل ستغفري له أخطاء هائلة .. الرجال في الشرق يولدون بجينات التناقض ويرضعون من أمهاتهم كيف لا يتخلون عن تناقضاتهم؟!

يقدسون تابوهات التقاليد متى شاءوا ويحطمونها متى شاءوا ...

لا تشتكي من كلمات أخته الجارحة لكِ وأفعالها المستفزة هي دائمًا لا تتعمد ذلك وأنتِ من تتصيدين لها الأخطاء...

أنصتِ حين يتحدث فلا مبرر لكِ إن تجاهلتِ حديثه وله كل الأعذار حين يتجاهلكِ ...

لا تصطحبيه معكِ في شراء ملابسكِ فإما أن تشتري قطعة ملابس لم تفكري يومًا بشرائها وتُلقي بها في خزانتك وأنت متأكدة أنكِ لن ترتديها أبدًا واقتنيتيها فقط حقنًا للدماء ...

وإما أنكِ لن تشتري قطعة ملابس واحدة طوال حياتك، ستصابين بعقدة نادرة الحدوث لم يعرف الأطباء النفسيون لها سببًا غير أنكِ بمعية رجل شرقي ..

صدّقيني لا يوجد فرق بين رجل ورجل غير من يحبكِ أكثر ..

(١٠)

قــــاديـــن

في صالة انتظار المطار يجلس هناك بعيدًا عن الضوضاء ينتظر إتمام الإجراءات الروتينية الأخيرة .. يتشبث بصفحات كتاب يمعن فيه وهو في الحقيقة لا يقرؤه، ربما لا يعلم اسمًا لكتابه .. غارق هو في تفاصيل حياته، في قراراته التي ما تجرأ يومًا ليقررها بنفسه، كل ما حدث منذ ولادته كان يُخطَط له وما عليه هو سوى التنفيذ، حتى تلك الوظيفة المرموقة التي يشغلها الآن كانت بناءً على رغبة والده وحصل عليها بواسطة أصدقاء والده أيضًا ..

لا يهم ماذا تعني له هذه الوظيفة المهم أنها تعني لوالده الكثير، منذ مراهقته لَم ترُقْ علاقاته النسائية لوالدية، كانوا يرون فيها بتورًا واضحًا وصريحًا، كانت بالنسبة لهم علاقات غير وافية للشروط المرجوة ..

يثورون عليه تارة ويهدءون تارة اقتناعًا منهم بأن الحال لن يدوم ولن يتزوج واحدة منهن أبدًا، وهذا هو المهم ..

حتى لَم يأتِ في أذهانهما مرة أن يختار النشوز فيتزوج فتاة تعجبه فلم يعتادا منه على ذلك ...

وبرغم حبه للأدب والقراءة وعزوفه تمامًا عن المعادلات والقوانين المعقدة اختار وبدون تفكير الالتحاق بالقسم العلمي تلبية لرغبات والديه دون حتى أن يعترض .. دون أن يتفوه بكلمة ..

لا يتذكر سامر أنه قال «لا» يومًا، بل عَشِق الإيماء برأسه وصارت حركة من حركاته التلقائية مثل أن يفتح فمه ليأكل أو أن يغمض عينيه لينام، كان يومئ برأسه ردًّا على أي شيء يُطْلَب منه ..

منذ صغره لَم يعجبه اسمه لا يشبهه، لكنه لم يعبر أبدًا عن ذلك الرفض حتى لو بمجرد الكلام لا أكثر، فالحديث مع من اعتاد أن يُطاع طوال الوقت لا يريح ولا يجدي أيضًا..

يُقلب صفحات الكتاب برتابة فيجد وردة متيبسة كادت أن تسقط فأمسكها ... وضعها بجانبه وعاد لشروده ..

هذه الوردة التي وضعتها له لتجعله حين يراها يتذكرها ويبتسم ..

....تذكرها لكنه لم يبتسم...

حين التقى بزوجته لأول مرة لم يلتفت لها، بل أنه لم يشعر بوجودها من الأساس كانت وجهًا من وجوه الجالسين ولم تنطق بكلمة واحدة ولكن لا يعني ذلك شيئًا أمام نظرة والدته فيها، وماذا يفعل هو وقد وقع الاختيار عليها هي بالذات لتصبح زوجته ...

وقد كان ....

الآن بات الماضي لا يشغله فقد ولى وانقضى وليس بإمكانه أن يخط سطرًا جديدًا في أوراقه القديمة لكنه يستطيع أن يضيف أوراقًا بجانب أوراقه الناقصة ..

يُفكر في ابنته القادمة ....

ماذا سترث من أبيها وماذا سترث من أمها؟

وفي كلا الحالتين لن ترث حلمًا ... لن ترث حياة ..

أَغلَق الكتاب وبدا مستعدًّا للذهاب ويتراجع في اللحظة الأخيرة ليسترق نظره فتاة تجلس أمامه يشعر بأنه رآها في السابق، يحاول أن يتذكرها لا يستطيع ثم يحدث نفسه:

أعتقد أني لا أعرفها فلم يسبق أن رأيت فتاة بهذا التألق في حياتي كلها، إنها ....

تقاطع حديثه بابتسامة ملائكية جعلته يسرح فيها لثوانٍ وكانت تلك الثواني كافية لأن تبرح المكان وتمضي ..

حين انتبه لم يستطع حتى رؤيتها من بعيد لكن ابتسامتها سكنت عينيه ..

وكما عودتنا الحياة دومًا .. الأشياء الرائعة غالبًا لا تدوم، تأتي بلا مقدمات وتمضي بلا مبررات لتصبح ذكرى ..

مرت عدة أيام لم تخلُ من التفكير بها حتى صارت جزءًا من حياته .. شعر بمعنى لوجوده في مكان ما في هذا الكون ..

بعيدة هي في المكان لكنها أقرب إليه من أي كائن آخر يعرفه .. دائمًا الأقرب إليك هو حلمك وصارت كل أحلامه .. يتمنى في عالم موازي أن يلتقي بها يتحدث إليها يحكي لها كيف كانت حياته وكيف أصبحت وكيف أنه تشبث بالحياة منذ أن رآها ..

يضمر أحاسيسًا بداخله لا يتفوه بها لأحد أيًّا كان فلا أحد سيعي حديثه هذا، وبالنسبة لأي شخص آخر كلام حديث بلا معنى بلا هدف، أفعال مراهقين ..

لكل منا أحلامه، نزواته، حكاياته، لا تتشابه الحكايات والأحلام والنزوات أبدًا؛ لذا لا تتشابه الرؤى مطلقًا..

فيظل كل منا مقتنعًا بعالمه الخاص ولا يسمح لأحد أن يتدخل فيه، نظل هكذا حتى نفقد الحلم، وحين نفقده نبوح بما في داخلنا، نتحرر من قيوده وقتها فقط نقول الحقيقة، نعترف بأخطائنا التي اقترفناها في حق أنفسنا قبل أي إنسان آخر ..

أما حين تتحقق الأحلام نتباهى بعبقريتنا الفذة وذكائنا اللا محدود ونبحث عن آخر ..

كان بإمكانه أن يبحث له عن حلم آخر، ولكن في زمن كهذا لن تعثر على حلم كل يوم؛ فالحلم في حد ذاته أصبح معجزة ..

تطرق السكرتيرة باب المكتب ..

- هناك فتاة في الخارج تود مقابلتك ..

- ما اسمها؟

- رفَضَت أن تخبرني ..

- دعيها تدخل ..

عندما رآها تتقدم إليه حاول أن يتماسك خوفًا على عقله من أن يهوى من النافذة ..

جلَسَت دون أن تستأذنه وهو ما زال واقفًا لا يبدي حراكًا، تضحك هي بشدة وباستفزاز أيضًا ..

- لا تُصدم هكذا فأنا قدرك، اختيارك، قرارك الذي تأجل

سنوات وسنوات لتأخذه الآن، ستراني كثيرًا فتعود على ذلك يا سامر ..

- هذا خبر سار بالنسبة لي .. ولكن ما اسمكِ؟ فليس من العدل أن تعرفي اسمي وأنا لا؟

- وماذا تعرف أنت عن العدل .. في أمور كثيرة تتغير موازين العدالة ويصبح القهر عدلاً والإجبار قمة العدل .. سَتُجبر على رؤيتي وحديثي معك شئت أم أبيت فأنا هنا في كل مكان حولك ..

- من أنتِ؟

- أنا حواء التي راوغتك كثيرًا ولم تفلح في فهمها يومًا، تتلفت لها بجنون بينما تبتسم لك في غرور ... تُصارح نفسك مرارًا بأنك لا ولن تفكر بها وأنت تعلم جيدًا بأنك كاذب، تُعاهد نفسك ألف مرة على الصوم عنها فيؤلمك الزهد وتعود لترتشف من أنوثتها ..

اسمي يحمل رونق الأميرات وفخامة الملكات ..

- من تكونين إذن؟! أنتِ من الجن أم الانس أم أنكِ ملاك؟

- اسمي امرأة.

- يسألها متعجبًا ... اسمكِ امرأة؟!

- اسمي يعني امرأة بالتركية، واقترن بأسماء زوجات أمراء وملوك..

- ابتسم ... ويليق بكِ حقًّا .. مذ أن رأيتك وأنا أراكِ أميرة فقط أميرة ..

- أنا.........

قام منفزعًا يتدارك أين هو ليجد نفسه نائمًا على سريره ..

يتأفف ..

ماذا لو كانت حقيقة ورأيتها مرة أخرى .. تجهز للنزول وفي طريقه اتصلت والدته:

- سامر ... هل قيدت اسم ابنتك أم لا؟

- في طريقي يا أمي.

- لا تنسي كما قلت سنسميها على اسمي ..

ودون أن يرد أغلق الهاتف ..

وقف أمام الموظف مترددًا ..

- هتسميها أيه يا أستاذ؟

يعرف هو أن لا الأحلام تتحقق في عالم كهذا، وتظل دائمًا أحلامًا لا ترقى أبدًا إلى مرتبة الحقيقة .. لكنه سيحققها ولو على الورق ...

سيُحرر ورقة بأحلامه ويهديها لابنته، فإن لَم تلحق أنت بها تخلى عن مكانك لشخص آخر ربما يفعل مالم تسطع فعله أنت ...

على الأقل اجعل أحلامك إرثًا ..

- يا أستاذ ..... هتسميها أيه؟

- قادين.

- نعم؟

- هسميها «قادين».

(١١)
لَمْ يمضِ العمر بعد

أمام نافذة مطلة على حديقة مهملة تقف امرأة قاربت الأربعين، تملك جسداً نحيفاً لا يتناسب أبداً وسبع سنوات زواج وولادة طفلة ربما لأنها لم تأكل يوماً لقمة واحدة مرغمة لتجامل بها سيدات العائلة ..

تنظر بعينين ناعستين قلقتين على ما مضى من عمر، تهتز ستائر النافذة من نفحة هواء وكأنها قادمة من الماضي، بينما لم يعبأ شعرها الذي رفعته دوماً ولم تسدله يوماً ليظل أكثر راحة لها، هي لا تهتم لرأي أحد..

فما الذي ستكتسبه إن أسدلت شعرها ليعجب الناس، بينما تتذمر هي في كل مرة تفعل ذلك..

تتأوه بتنهيدة تنطقها شفتاها التي تتركها عادة بلونها الطبيعي، فماذ سيتغير بالعالم إن لونت هي شفتيها ...

لم ترتدي هذا الكعب السخيف يوماً حتى في يوم زفافها اختارت حذاءً مريحاً لها رغم أن عريسها كان يفوقها طولاً بعشرين سنتيمتر..

لم تستمع لكلمات من حولها وكيف أنها ستبدو قصيرة للغاية وستبدو مضحكة أيضاً...

هكذا كانت هي ..

تفعل ضد كل ما هو حاصل أو بمعنى أدق كانت تفعل كل ما لا يريده حولها ...

تتمرد هي دائمًا حتى عندما خاضت معاركها ضد أهلها طلبًا للطلاق لم تستسلم لنصائحهم البالية والتي عفا عليها الزمن ...لم ترضَ برجل هو بالنسبة لها مجرد زوج وأب لابنتها لا أكثر ..

لم تكن له يومًا مشاعر الحبيب فهو في نهاية الأمر عريس صالونات لم تعرف عيوبه فاختارت أن تقبلها بل أُرغمت على تقبُّلها مع مرور الأيام ...

كانت نهاية هذه العلاقة حينما تجرأ ليبرحها ضربًا أمام أهله ليثبت أمامهم رجولة زائفة..

أهل زوجها الذين طالما لم يستسيغوها ولو لمرة فهي بحكم طبعها لم تتودد لهم بالشكل الذي يرونه لائقًا بأسرة أهدتها رجلاً كهذا وبكل سهولة، رجلاً كانت تتهافت عليه الفتيات من هنا وهناك لوضعه الاجتماعي والمادي ...

تنازلت حتى عن حقوقها لم تأخذ منه شيئًا يذكر مقابل أن تحتفظ بابنتها الوحيدة...

هي الآن تتمنى عالما بلا بشر، فهي لم تعد تتحمل عاداتهم المزعجة وأحاديثهم المكررة ومبرراتهم التي بلا معنى ...

سَمِعَت صوت الهاتف .. أغلقت النافذة وذهبت ترد لتجد صديقًا مقربًا لها يحادثها يطمئن على أحوالها التي باتت لا تهم أحدًا غير أسرتها الصغيرة..

نصحها بأن تحاول الخروج من هذه العزلة والانطوائية المميتة.. لا لأجل شيء بل لأجلها هي، ثم اقترح عليها في نهاية المكالمة أن تفكر جديًّا في نشر قصائدها التي يعتبرها أكثر من رائعة، وأن سوق الكتاب اليوم يعج بما يقرأ ولا يقرأ وهي تمتلك الموهبة الحقيقية ولم ينسَ لها أبدًا قصيدتها التي طلب هو منها أن تكتبها بيديها لحبيبته لفشله الدائم في التعبير عن مشاعره أمامها ولن ينسى لها أبدًا أيضًا أنها صارت الآن زوجته..

ارتسمت على شفتيها ابتسامة من القلب ..

- لكنها طيبة وتحبك كثيرًا ...

قال لها وبكل حماسة: صدقيني قصائدكِ ستعجب الناس كثيرًا وستحقق نجاحًا بإذن اللّه..

ردت في استنكار:

منذ متى وأنا أكثرت لآراء الناس يا صديقي..

أغلَقَت الهاتف لتفكر جديًّا في اقتراحه البعيد وبالنسبة لها غريبًا ....

.... بعد مرور عدة أشهر ....

جلَسَت على أريكتها معتدلة لتقرأ أول ديوان لها ثم قامت منتفضة من جلستها حين رن هاتفها وظهر رقم الناشر لترد عليه في قلق وخوف لم تشعر بهما من قبل، أخبرها في حماسة غير معتادة منه أن إقبال القراء على كتابها مبهر غير الآراء المطمئنة والمبشرة التي أتته من هنا وهناك، وأخبرها أنه تم الاتفاق على أمسية شعرية ستحييها الأسبوع القادم ولا بد وأن تستعد لها جيدًا فسيحضرها عددًا لا بأس به.. في نهاية المكالمة .. قال لها:

أتمنى أن يحبكِ الناس تمامًا مثلما أحبوا قصائدك..

أغلَقَت الهاتف لتحتضن كتابها وتقفز به حتى كادت رأسها تلامس سقف الغرفة فتهدأ رويدًا رويدًا لتكرر وهي غارقة في التفكير ...

الناس! الناس! الناس!

.... بعد مرور أسبوع ...

وطأ أرض القاعة كعب امرأة بالكاد تمشي ومن فوق الكعب فستان أزرق يذكرك لوهلة بأمواج البحر حين تهدأ ..

يتوسطه حزام عريض يُظهر رشاقة مبالغ فيها وشفتان يكسوهما الحمرة، وشعر مُسدل على كتفيها أَخفَى نصف وجهها تقريبًا ..

تقدمت لتقف أمام كل هذا العدد تُلقي قصائدها التي ما إن تنتهي من واحدة حتى تقابل بالتصفيق الحاد وهي تبتسم وكأنها لم ترَ حزنًا من قبل ..

اعتدلت في وقفتها تنظر لهم في ثوانٍ لتخبرهم:

(الناس يبنون جدرانًا بدلاً من أن يبنوا جسورًا لهذا فهم يزدادون وحدة وتباعدًا بدلاً من أن يزدادوا اقترابًا) ..

هكذا يقول الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع ..

ثم أردفَت:

ندمت لأنني لم أرتدِ يومًا كعبًا يخفي قِصَر قامتي، ولم أَسدل شعري الذي يعطي امتلاءً ملحوظًا لوجهي النحيف، ولم أضع هذا اللون الأحمر الفاقع على شفتيّ يومًا مع أنه يناسب جدًّا بشرتي البيضاء، وكيف أنني كنت أمقت كل البشر بلا استثناء رغم أن هؤلاء البشر اليوم يمنحوني سعادتي بلا مقابل؟!

وحدهم من حولك يمنحوك سعادتك لا شيء آخر وقد يمنحوك بؤسًا لا حصر له..

في النهاية بهم تكن الحياة وبدونهم لا حياة ..

لكنني لم أندم أبدًا حين لم أنافق أحدًا..

فالمرء يخسر إنسانيته شيئًا فشيئًا حين يكذب، ولم أندم حين لم أرضَ بعبودية مخلوق مثلي ..

لأني خُلقت حُرة .

(١٢)

لــن يعــود

تَجْلِس قلقة متشابكة الأيدي تحاول التنفس ﮮ غرفة بدت ضبابية من دخان يتصاعد تنفث فيه سيدة عجوز وتُتَمْتِم بطلاسم لا يمكن فهمها ....

تنظر العرافة إليها ﮮ شفقة تصاحبها تنهيدة غير قصيرة لتقول لها:

لا تيأسي سيأتي عن قريب وبعض كلمات أخرى من هذا القبيل فتبتسم نصف ابتسامة وتعطيها مبلغًا من المال ...

تخرج من تلك الغرفة الكئيبة وتحاول التنفس بحرية، تفكر فيما قالته العرافة فتُصاب بالفرحة لحظة، ثم تتذكر كيف أنها اعتادت تلك الكلمات منها منذ ثلاث سنوات ولم تَصْدُق، هي فقط تشتري أملاً، تشتري سببًا لانتظاره ... أو ربما تشتري صبرًا ...

تدخل مطعمًا اعتادت الجلوس ﮮ ركنه البعيد، ولم تنظر يومًا إلى قائمة الطعام .. تستدعي النادل لتطلب منه مشروبها المعتاد ....

على أنغام أم كلثوم «أغدا القاك» تتمايل هي ببطء شديد تنظر من زجاج تَرى منه المارة تفتش عنه ﮮ عيونهم، تتفقد خطواتهم، تتوارى هي خلف جدارن الحقيقة، تتخاصم مع هواجس عقلها وتختبئ من أفكارها ... تَبتُر شكوكها وتتمسك بأحاديث القلب، تتسلق نبضاته، تصدق أساطيره، تثق ﮮ مزاعمه وتردد: «سيعود» ....

عَشِقَت طول انتظاره تمامًا كعِشقها له، لَم تملّ تفاصيل عقارب الساعة تمامًا كما لَم تَمل النظر إلى صورته، تمر السنين فيتكاثر اشتياقها له يومًا بعد يوم وهي تحاول إخفاء آلام شكواها فَتسجِن دموع عينها، عينها التي أجهدت من إهدار الليالي في الترقب والانتظار، راضية بمكالمة هاتفية وأحيانًا رسالة بريدية من وقت لآخر متوهمة بأن هذا يكفي ...

لتصبح رهينة أكذوبة صدقَتها علها تروي مرارة الوحدة والتي أخذت تتجرع من كأسها حتى آخر قطرة .... قبل ذلك بسنوات صدقت أكذوبته هو أيضًا عندما رحل ليجمع أوراقًا منقوشة بأوجاع الغربة وحبر الفراق، ويُشعل النيران في فتيل أيامها معتقدًا بذلك أنه يصنع لها مستقبلاً بلا متاعب أو عقبات ...

تتساءل هي الآن كيف تخلت عن كل التقاليد الباهتة، بينما لم يتخلَّ هو عنها وقرر الابتعاد من أجل تكاليف حفل زفاف لن يستغرق أكثر من ساعتين في يوم ما وأثاث لن يجلس عليه إلا كلاهما وسجادًا لن يطأه إلا قدماهما؟

لا تدري أتلوم نفسها لأنها لم تستطع إقناعه أم تستسلم وتؤمن بأنه رآها فرصة للابتعاد بل فرصة لا تعوض ليتحلل من كل وعوده

أمامها ويمطر اللعنات على الظروف والأقدار، رآها حجة تجعله يغتسل من ذنوبه ويظهر قديسًا أمامها، ولم يكترث لنداءات عينيها وهتافات قلبها، لم تعنيه كثيرًا همومها القادمة ولحظة وداعه لها التي جردتها من جميع حواسها وتغييبت مشاعرها عن الوعي لتُوقظها يداه الباردة وأحضانه الراحلة ...

تجرأت قدماه على الرحيل بعد استسلامها لأفكاره الشمطاء تلك، ليبقيها على أعتاب متعة الانتظار وحافة الجنون ....

تكاد تفقد عقلها الذي لم تعد بحاجة له الآن فهو يعكر صفو انتظارها له .....

تفعل كل شيء برتابة متناهية .... تشرب فنجانًا للقهوة فتستغرق زمنًا يكفي لوضع خطة عمل كاملة، ترتدي كل قطعة من ملابسها في زمن يكفي لكتابة قصة قصيرة، تتناول طعامها في زمن يكفي لمشاهدة فيلم سينمائي بأكمله .... بينما تقف أمام المرآة في زمن لا يكفي حتى لغمضة عين ....

تَجوب شوارع المدينة لساعات تلحظ كل هؤلاء الناس كيف يلهثون هكذا وهي تقف ثابتة وكأن الحياة توقفت حين ابتعد وستعود مرة أخرى

حين يعود، هم لا يفهمون شيئًا فلم تبدأ الحياة بعد .... لِمَ تركضون ؟!

لِمَ تتشاجرون؟! لِمَ تبتاعون؟! لِمَ تفرحون؟! لَمْ يَحِن الوقت بعد؟!

توقفوا عن هذا الهراء ... أنتم سُذج وأغبياء ..

هو لَمْ يأتِ إذن لا حياة على الأرض ...

هو ليس هنا إذن لا بشر هنا ...

تَقِف متجمدة على أرض لَمْ تعد صلبة كما كانت، يتخبطون بها المارة، تبدو كتمثال في وسط الطريق يعيق تحركهم ...

يأتي صوت ليس ببعيد لسيارة قادمة وكأنها لا ترى ولا تسمع شيئًا، يصرخ العابرون في وجهها تحركي السيارة قادمة وهي تأبى، ينظرون لها في دهشة ويتساءلون ماذا أصابها ؟

يتعالى الصوت القادم فيقترب أحدهم ليبعدها بقوة فتختلط أصوات المارة بصوت فرامل السيارة فتنتبه أذناها بعد أن سقطت أرضًا ....

تنفض ثيابها وتُمسك بحقيبة يدها وتذهب مُسرعة غير مكترثة لنظرات تخترقها وكلمات تُوبخها .....

عادت للمنزل مُنهكة، تتصبب عرقًا، ترتجف بشدة، يتملكها

كابوس الحلم والحقيقة فيتصارعان معًا، وتتمنى أن تحسم النتيجة بينهما ربما ترتاح .... تريد فقط أن ترتاح ...

تتجه صوب المرآة تُمعن النظر في خصلاتها السوداء، تمسك بمقص وتبدأ بقص شعرها ومع كل أنْمُلة تسقط تتنفس بعمق، وتكمل ما تفعله بابتسامة غريبة ......

تنظر أرضًا فتتعجب كيف تركت كل هذه الخصلات الباهتة والمتقصفة على شعرها كل هذا الوقت!!

تتلمس خطًّا رفيعًا تحت عينيها فتُمسك بأحد المساحيق لتخفي خطوط العمر ....

تُشغل المذياع ..

ترقص في حركات لا تتلاءم أبدًا مع جسد اعتاد الرتابة والبطء، تُغمض عينيها فتتزايد حركاتها مع إيقاع الموسيقى، يلمس طرف فستانها صورته على الطاولة فتسقط أرضًا ويتحطم زجاجها، تقف مرة أخرى متجاهلة زجاجًا منثورًا تحت قدميها ..

يتحرك بندول ساعة الحائط ويصدر صوتًا، بينما لَم تسمع هي صوتًا يعلو على صوت ماجدة الرومي وهي تغني:

أنا شئت أرحل لن أعود إلى سراب..

وأهيم ﻓﻲ دنيانا أحترف الغياب ..

أحرقت دمعة ذكرياتي ..

حطمت سجني والقيود ..

من قال إني قد أعود ..

وأبيع ثانية حياتي حياتي..

وحياته أنا لن أعود ..

لن أعود ..

(١٣)

رسالة لن تصل أبدًا

دق جرس الباب قامت وهي نصف نائمة تفتح الباب لتجد خادمتها وقد عادت بعد إجازة قصيرة ..

- سيدتي .. لقد عُدت قبل إجازتي بيومين حتى لا أترككِ وحيدة في هذه الحالة ....

أشارت لها بيدها تفضلي بدون أن تنطق بكلمة واحدة ..

ذهبت ببطء إلى الحمام لتغسل وجهها ولَم تحاول أن تنظر إلى المرآة، ثم انتقلت لغرفتها الهائشة لتجلس على مكتبها تنظر يمينًا وشمالاً لتقول بصوت خافت: ماذا حدث؟ مَنْ فعل هذا بغرفتي؟

نادت لخادمتها بصوت عالٍ بعض الشيء:

تعالي ... أنا لا أفهم شيئًا ماذا حدث؟

سيدتي كل ما أعرفه أنكِ من ثلاثة أيام أتتكِ رسالة لا أدري ممّن، ثم انتابتكِ حالة من الصراخ وناديتِ عليّ وقتها وطلبتِ مني الخروج من البيت وحاولت أن أنصحكِ بالهدوء ولكن دون جدوى وأصريتِ على أن أخرج من المنزل وأأخُذ إجازة لمدة خمسة أيام، وكنت أتصل بكِ مرارًا فأطمئن عليكِ، وكنتِ تردين بصوت مجهد:

أنا بخير لا تقلقي ..

إلى أن اتصلت بكِ اليوم وجدت هاتفك مغلقًا فقررت المجيء ...

حسنًا، خذي كل أكواب القهوة هذه وضعي بقايا الطعام تلك في سلة المهملات، لا أستطيع تحمل رائحتها الكريهة ....

- أمرك سيدتي ....

أَراحَت ظهرها قليلاً إلى الوراء، ثم نظرت لتجد هاتفها مغلقًا تمامًا، فهي لَمْ تشحنه في الثلاث أيام تلك، ووجدت رسالة مفتوحة أخذتها لتقرأها:

«حبيبتي .... أعرف قسوة ما سأفعله بك، ولكني سَئِمت من كل شيء حتى من هذا الحب الذي منحني الحياة يومًا، كنت سأغادر البلاد دون أن تعرفي ولكني فَضلت إخبارك بما سأفعل .... قررت أن أبدأ حياة جديدة في بلادٍ جديدة، وربما مع امرأة جديدة هكذا هي الحياة ...... تقبلي أسفي».

بدأت تتذكر كل ما حدث وكيف أنها كانت تنتظر رسالته هذه يومًا، كان يغمرها إحساس الخيبة معه أكثر من الحب، كانت تؤمن بأنه عندما تهبه كل شيء سيرحل في وقت ما حتى أنها لم تترك فُتَاتًا

تُكمل به حياة أخرى، تعلم تمامًا أنه لم يترك شيئًا لرجل آخر ومع كل هذا استمرت، وتتمنى الآن أيضًا لو كان بإمكانها أن تستمر.

ذَرَفَت دموعًا لم تذرفها من قبل، بللت رسالته بدموع امتزجت بالقهر أكثر من الندم، صَبت كل لعنات حبه على كلماته علها تحرقها كما أحرقتها الآن ....

ضربت بقبضة يديها صورة له تحت زجاج المكتب فسالت دمًا .. لم تهتم بما نزفت، فماذا يساوي بجانب ما ينزفه القلب الآن ......

تركت رسالته أرضًا لتمسك بورقة على مكتبها وتكتب هي الأخرى رسالة:

«حبيبي.. سأبدأ من حيث انتهيت أنت ..... أنت قررت أن تبدأ حياة جديدة في بلاد جديدة، وربما مع امرأة جديدة لأنك وبكل وقاحة تبرر لي بأن هكذا هي الحياة وأنا أقول لك هكذا هم الرجال ....

لا تعلق أفعالك الحمقاء على شماعة الحياة، قل لي ببساطة أنك لَم تُحب ... تَشجع وقُلْهَا لي: «أنك لم تعشق».

أو أنك حتى لَم تشعر ...

ولن أقبل ردودك المعتادة لي هذه المرة:

أنا أحبكِ بكل جوارحي؛ لأنكَ لو كنتَ كذلك حقًّا لثارت عليك جوارحك والتهمت كل هذه القسوة التي بداخلك.. لو أحببتني حقًّا لخرج قلبك من جسدك ليتبرأ منك ...

لا تتحدث باسم الحب وإن كنت مرارًا قد أطلقت عليَّ لقب عشيقتك لإهانتي فأنت أيضًا لَم تعرف ما هو العشق ....

ستروي لك عشيقتك معنى العشق ....

العشق هو أن تضحك حد البكاء، أن تلمع عيناك في كل مرة ترى فيها معشوقك ....

أن تبكي فقط لأنك تشتاق، وتفرح فقط لأنك عاشق ....

أن تنهار يومًا لبعد حبيبك وكأنك مراهق ....

أن تحاول الانتحار مائة مرة وتُقبل على الحياة ألف مرة ....

أنتَ لَم تعلم بعد كيف يكون العشاق ...

يُخلصون بكل بلاهة وما أسهل التضحيات في قوانينهم، يصادقون الانتظار ويحفظون عقارب الساعة عن ظهر قلب .....

عندما تَعْشَق يومًا ...

ستتنفس هواء معشوقك، ستتوحد مع قطرات المطر ظنًّا منك أنها تُرسِل لك رسائل لا يفهمها إلا أنت ....

ستراقب كثيرًا وستصاحبك أدوية الصداع كثيرًا أيضًا ....

ستُسامح دومًا ولن تنسى أبدًا ... ستَتَغَار حد الاحتراق ثم تبتسم ولا يبدو عليك شيء ....

ستُجرح لكنكَ لن تَجْرح أبدًا ...

ستغدو طفلاً وأنت في الخمسين من عمرك، لن يجري بك قطار العمر فالعشق يا سيدي لا يعترف بقطارات العمر ....

عندما تَعْشَق ...

تتضاءل في نظرك كل مشكلات الكون وتصبح مشكلتك الكبرى كيف لم يرد على هاتفي .... ماذا به .... ماذا حدث؟

نَسيت أن أقول لك: إنك ستنتظر لهاتفك كل دقيقة وستنتفض من مكانك حين يَرن ....

فجأة ستبتسم وأنت مع أصدقائك ولكن ليس لأصدقائك بل لشاشة هاتفك ...

ستبتسم أيضًا وأنت بمفردك حينما تسمع تلك الأغنية التي لا أحد غيرك يعلم ماذا تعني إلا هو...

ستتمادى في عِنادك وفي ضعفك أيضًا ....

تهتم حتى يَمل منك الاهتمام ...

تندم كيف أنك لَمْ تُحب كل هذا العمر وكيف أنك أحببت بكل هذا العمق ...

حين تَعْشَق ...

لن تجرؤ على الرحيل ولو لمرة واحدة لأنك وبكل بساطة ستحترف البقاء فالعشق بقاء .....

سيدي:

«لا يوجد حب وحب أكثر من اللازم ... يوجد حب وعشق، وإن كنت عشيقتك كما كنت دومًا تقول لي فأنت معشوقي وإن كنت لَم أقل لك».

وختامًا...

«لم أكتب رسالتي لتصلك فتقرؤها هي لن تصلك أبدًا حتى لو قرأتها مائة مرة «.

ألقت بقلمها لتأخذ نفسًا عميقًا، ثم انتبهت أن يدها تنزف، حاولت أن تضمد جرحها فَفَعَلَتْ لتترك جرحًا آخر تعلم أنه لن يُضمد أبدًا ...

(١٤)

عفوًا.... أيها القانون

لَم أفهمك يومًا ...لا بل أتظاهر بأني لم أفهمك وأتفقد كل يوم أعذارًا لغموضك لأغذي بها حبي لك حتى لا يموت إكلينيكيًّا ولأصون كبريائي أمام نفسي ...

لا تتعجب فعيناك سربت لي اعترافاتٍ خفية وتجاهلتها، يداك أعطتني كلمة السر علي أفهم شفرة مراوغتك ألقيتها جانبًا، شفتاك ألصقت بخدودي أسماء وتواريخ مزقتها بدموعي ...

بات هناك شبح يطاردني اسمه الحقيقة وأنا ما زلت على منصة الحكم أدافع عنك، أستغل كل ثغرات الحب لأعفو عنك، أجمع لك كل الهدايا والورود لتشهد معك، ألملم أحلامي التي تبعثرت لتساندك، وأجبر عيوني على ابتلاع دموعي لأتذوق مرارة وفائي لك..

وأدت أقلامي ودفاتري في مقبرة الكلمات ورفضت نعي حروفي وأوصدت باب العزاء، أيقظت مواعيد الغرام المنسية ...لمساتك لي... كلماتك لي ...أخفيت دلائل إدانتك وأشهرت ولعي بك ..

أعلنت الحرب على الحقيقة وقبلت الرهان على قضية تفاداها العشاق مرارًا، وأخذت أترقب وأترقب فيُجرمك قانون الحب ويأمر بانتزاعي من حياتك.

ويرفض الطعن في قضيتي مستغلاً سلطته على قلوب البشر ....
لكني سألقي بكل هذه الأحكام أرضًا وأعرف أني بذلك أتمرد على كل الأعراف الإنسانية ولكن عفوًا... أيها القانون.

(١٥)

تركت لك مقعدي

أحسست الآن ؟ .. تعلمت الآن ؟ ..

هكذا كان حالي.. هكذا كانت حياتي.. ظلمة تُطوق جسدي وأمواج دموعي تحطم أسوار سعادتي والحيرة تتغلغل في نفسي..

كنت أشعر وكأن العالم قد توقف عند تلك اللحظة الفارقة وسواد الليل البهيم أطفأ نور صباحي وأشواك الحيرة تثقب أفكاري ...

تركتني أشلاء مترامية على شاطئ الأحزان واقتلعت من حديقة حياتي أشجار أحلامي، جعلت عواصف آلامي تجرف في طريقها كل آثار البهجة ورياح اللوعة تعصف بكل ما تبقى من حريتي.........

انتابني شعور وكأن العالم قد انفض من حولي والناس أصبحوا غرباء لا يمتون لي بصلة، ورغم كل هذا حاولت أن أكذب على نفسي لأشعر بالراحة قليلاً تلك الكلمة التي طالما انتظرتها مرارًا، ولكن هي بالفعل بعيدة عني كل البعد؛ لأننا كلما انتظرناها كلما بعدت عنا؛ فالأفضل أن نتخلى عنها نحن، ربما تأتي هي وبدون انتظارٍ منا ....

هكذا أجلَسْتني على مقعد الضياع أتأمل تلك الوجوه المتهكمة على آلامي وأنتَ هناك تترقب ..

سمعِتُ ضحكاتك ورأيت ابتساماتك.. انتظرتك تقترب مني.. تقاتل من أجلي لأني لهذا أحببتك..

لكني كرهت طول الانتظار فلن أنتظر شيئًا بعد اليوم ....

...وتركت لك مقعدي...

(١٦)

كوكب آخر

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه لأول مرة، كان رجلاً متفردًا في كل شئ في إيحاءاته الغرامية وأطواره الغامضة، جعلني أعبئ أوراقي بحروف المستقبل متجاهلة كل الأزمنه الفلكية، ضاربة بعَرض الحائط كل انهزاماتي الماضية، وهبني ذلك الوهج الأسطوري ليهديني مفاتيح الحياة ففُتحت لي أبواب الجنان الدنيوية التي ظننت يومًا أنها روايات على ورق لم يجسدها الواقع بعد، لكنه شكل واقعي المنفرط ولَمْلم أيامي بالدقائق والثواني ليهديني باقة متناسقة الألوان من سنين العمر وكأنه كان يعي أن أيامه تتناقص في الحياة، ولكن هل كان يعي أنه الحياة؟

لقد أدمنت بقاءه بجانبي وأشفقت على نفسي في غيابه..خاصمني الكون فلم تعد تشرق الشمس على كوكبي، لم تظللني أوراق الشجر، غاب قمري، جفت بحار دموعي، تجمدت أنهار الأمل الجارية....

سافرت أوراقي فارغة من الكلمات فلم يخط قلمي حبرًا بل أسكب على أوراقي الدماء، صار هو الآخر خنجرًا يطعن كل أزمنتي.........اقتطفتك الأقدار من وسط جناني وأنا ماذا أكون بعد ممات وردتي؟ إلا بقايا دموع تحمل في قطراتها ألما تترجمها الآهات تلك الآهات التي زلزلت جبالي وحطمت الباقي من أجزائي ..

أنا الآن أعيش في ذلك الركن البعيد على هامش العالم أتعايش مع صورتك المهشمة التي لا أكاد أرى فيها إلا شفتيك المبتسمة.......

لن أسألك المجيء إلى هنا، فقد حسمت الأقدار أمرك، فقط انتظر عودتي إليك، فحتمًا يومًا ما سأدنو منك بدون مواعيد مسبقة، يومًا ما ستقلع روحي في فضائك الملائكي ....

دعني الآن أحزم أمتعتي استعدادًا للرحلة الأبدية وكم أنا على يقين أنني ربما أنتظر طويلاً .... فيا طول رحلتي .....

الفهرس

الصفحة

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى